أنوار القدر الأبهى

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

لِشَـهرِ شعبان عظمةٌ كبيرةٌ عندَ الْمُسلمينَ عامَّةً، وعندَ الْمُؤمنينَ خاصَّةً إذ وردَ عن الإمام علي الرِّضـا (علينا سـلامُهُ) أنَّ سـيِّدنا رسـول الله محمَّد (ص) قال: (شعبانُ شَهري، وشهرُ رمضانَ شَهرُ اللهِ).

ليلةُ النِّصـفِ من شـعبانَ ليلةٌ عظيمةٌ بإجماعِ الْمُسـلمينَ جميعِهم، وهي أشرفُ ليلةٍ من ليالي شهرِ شعبانَ، وأعظمُها قَدْرًا وأكبَرُها ذِكرًا، لأنَّها اللَّيلةُ التي قالَ الله تعالى فيها: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ).

وإذا كان هناكَ إجلالٌ لشَـهرِ شَـعبانَ واسـتِحسَـانٌ للصَّـومِ فيهِ بدليلِ قولِ الإمامِ علي الرِّضـا (علينا سـلامُهُ): (صَـومُ شَعبان حَسَنٌ، وهو سُنَّةٌ)، وقولِ الإمام جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (صَومُ شَـعبانَ وشـهرِ رمضـانَ مُتَتابعَين توبةٌ من اللهِ، واللهِ)، فإنَّ هذهِ اللَّيلةَ أعظمُ ليلةٍ فيهِ إذ يُقدِّرُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى جميعَ ما سَيحصَلُ للعبادِ من أرزاقٍ أو مصائبَ، ويَغفرُ فيها الذُّنوبَ، ثمَّ يُقدِّم اللهُ ما يَشاءُ، ويُؤَخِّر ما يشاءُ بأمرِهِ، لقوله تعالى: (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

لـذلـكَ كـانَ لهذهِ اللَّيلةِ العديدُ من الأسماءِ منها: ليلةُ البَرَاءةِ، وليلةُ الدُّعاءِ، وليلةُ الإجابةِ، واللَّيلةُ الْمُبارَكَةُ، وليلةُ الشـَّفاعةِ، وليلةُ العَتقِ من النِّيرانِ، وليلةُ عيدِ الْمَلائكةِ، وليلةُ التَّكفيرِ وليلةُ الحياةِ.

وقد أمَرَنا أميرُ المؤمنين الإمام علي (م) بقوله: (إذا كانت ليلةُ نِصـفِ شـعبانَ، فقُومُوا ليلَها وصـُومُوا نَهارَها، فإنَّ اللهَ تعالى يَنزلُ فيها لِغُروبِ الشَّمسِ إلى سماءِ الدُّنيا، فيقولُ: أَلاَ مُسـتَغفِرٌ لي فـأغْفِرَ لـهُ، ألا مُسـْتَرزِقٌ فـأرْزُقَهُ، ألا مُبْتَلًى فأُعافِيَهُ، ألا كذا، ألا كذا؟ حتَّى يطلُعَ الفَجرُ)، وهنا اشـتُهر الدُّعاءُ الْمُبارَكُ فيها: (اللهمَّ بالتَّجَلِّي الأَعْظَمِ فِي لَيْلَةِ النِّصْـفِ مِنْ شَـهْرِ شَعْبَانَ الْمُكَرَّمِ، الَّتِي يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ وَيُبْرَمُ، اكشفْ عَنَّا مِنَ البَلاءِ مَا نَعْلَمُ وَمَا لا نَعْلَمُ وَمَا أَنتَ بِهِ أَعْلَم).

لقد دعَا أهلُ البيتِ إلى زيارةِ الإمامِ الحسينِ (علينا سلامُهُ) في ليلةِ النِّصفِ من شعبان، ولأنَّنا نؤمنُ بعصـمةِ الإمامِ الحسـين (علينا سـلامُهُ) لأنَّهُ نورٌ مَعصـومٌ كالأئمَّةِ كلِّهم، لا نحصرُ زيارَتَهُ ببُقعةٍ

لأنَّ ذلكَ من العاداتِ الوَثنيَّةِ التي نهَى عنها سيِّدُنا النَّبيُّ موسى الكليمُ (ع) بقوله: (لا تَصنَعُوا لكم أوثانًا، ولا تُقيمُوا لكم تِمثالاً مَنحوتًا أو نَصبًا)، بل كلُّ بُقعةٍ يجتمعُ فيها الْمُؤمنون ويَذكرونَ اللهَ ويُسبِّحونَهُ هي بقعةٌ مباركةٌ لقول الإمام علي الهادي (علينا سلامُهُ): (إنَّ للهِ بِقَاعًا مَحمودَةً يُحِبُّ أن يُدْعَى فيها فَيَسْتَجِيبَ لِمَنْ دَعَاهُ)، وقوله عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ: (إنَّ السَّمواتِ والأرضَ لا تَسعُنِي، وَيَسعُنِي قلبُ عَبدِي الْمُؤمنِ، لأنَّ قلبَ عَبدِي الْمُؤمنِ حَرَمِي، وَحَرامٌ على حَرَمي أن يَسكنَ فيهِ غَيري)، وهنا تتحقَّقُ زيارَتُهُ بمَعرفةِ مقامِهِ الْمُنزَّهِ عن الحالاتِ البشريَّةِ جميعِها التي لا تليقُ بأهلِ العصمةِ جميعًا.

مِنَ الْمُهمِّ جدًّا الإشارةُ إلى أنَّهُ قد تَمَّ في هذهِ اللَّيلةِ تَحويلُ القِبلَةِ من بيتِ الْمَقدِسِ إلى البيتِ الحرامِ في مَكَّةَ الْمُكرَّمَةَ، بعدَ أن صلَّى سيِّدنا النَّبيُّ محمَّد (ص) أربعَ عشرَةَ سنةً مُتَوَجِّهًا إلى بيتِ الْمَقدسِ قبلَ أن يُصَلِّيَ متوجِّهًا إلى بيتِ اللهِ الحرامِ.

وبما أنَّ اللهَ لم ينتقلْ من بيتِ الْمَقدسِ إلى الكعبةِ سبحانَهُ جَلَّ عن الحركةِ والانتقالِ لقولِ أمير المؤمنين الإمام علي (م): (ولا كانَ في مَكانٍ فيجوزُ عليه الانتقالُ)، فإنَّ هذا التَّحويلَ كانَ للدَّلالةِ على أنَّ الْمَعاني العميقةَ للصَّلاةِ لا تَزُولُ بالتَّوجُّهِ لِمَكانٍ لأنَّ اللهَ هو الْمُتَجَلِّي في السَّمواتِ والأرضِ، لقوله تعالى: (وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ)، وهذا ما تُثْبِتُهُ بعضُ الأحاديثِ الواردةِ في فضلِ هذهِ اللَّيلةِ والتي تُثْبِتُ أنَّ لها فضلاً على سائرِ اللَّيالي.

ففي الحديثِ الشَّريفِ وردَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ يتَّخِذُ مَنظرَةً في الجنَّةِ تَبرُزُ صُورَتُهُ منها، وقد أجمعَتِ الْمُتصوِّفَةُ على أنَّ أصحابَ الحالِ يُشاهدونَ الحقَّ جلَّ وعَلا ويَرَونَهُ عِيانًا بدليلِ قول سيِّدنا النَّبيِّ عيسى الْمَسيح (ع): (طُوبى لأصفياءِ القَلبِ لأنَّهُم يُعاينُونَ اللهَ).

ورُوِيَ عن بعضِهم أنَّ اللهَ يتجلَّى في اللَّيلِ ثمَّ يُنادي: أينَ الْمُدَّعُونَ مَحبَّتي في النَّهارِ؟ أليسَ كلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ الخلوَةَ معَ حَبيبِهِ؟ فها أنا مُتَجَلٍّ على أحبَّائي أشاهِدُهُم ويشاهِدُونَني، وغدًا أُقِرُّ أعيُنَهم برُؤيَتي، وما يؤكِّدُ ذلكَ قولُ سيِّدنا النَّبيِّ محمَّد (ص): (إنَّ اللهَ لَيَطَّلِعُ في ليلةِ النِّصفِ من شعبانَ فيَغفِرُ لجَميعِ خَلقِهِ إلاَّ لِمُشرِكٍ أو مُشاحِنٍ)، وهو ما أشارَ إليهِ رسولُ الولايةِ إشعياءُ (علينا سلامُهُ) بقولِهِ: (يُعلَنُ مَجدُ الرَّبِّ ويَرَاهُ كلُّ بَشَرٍ جميعًا، لأنَّ فَمَ الرَّبِّ تكلَّمَ).

ومنَ الأدلَّةِ على ذلكَ ما رُويَ عن الإمام جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ) أنَّه قال: قالَ سيِّدنا رسول الله (ص): (صُبِّحْتُ ليلةَ أسرَى بي ربِّي فرأيتُهُ بصورةِ الشَّابِّ الْمُؤَنَّقِ. قيلَ: وما الْمُؤَنَّقُ؟

قـال: ابنُ الأربعَ عشـــرةَ ورجلاهُ في خُضـــرَةٍ وبيني وبينَهُ فِرَاشٌ من ذَهَبٍ، وهو باقٍ للآنَ يَرَاهُ مَن تَمَعْنَاهُ)، فسـُئِلَ الإمام جعفر الصـَّادق (علينا سـلامُهُ): وهل رأى محمَّدٌ ربَّهُ ليلةَ مِعراجِهِ؟ فأجابَ: (نعمْ وأنا رأيتُهُ البارحةَ هاهنا)، وأشارَ بيدِهِ إلى السَّماءِ؛ يَعني في هذا الْمَوضِعِ.

ولابدَّ من التَّنويهِ إلى أنَّ بيتَ الْمَقدِسِ ليسَ هو الْمَســـجدُ الأقصـــى كما يَظُنُّ أكثرُ النَّاسِ في أقوالِهم، لأنَّهم يَخلطونَ بينَ بيتِ الْمَقدِسِ والْمَسـجدِ الأقصَـى ويَجعلونَهما واحدًا وهذا غيرُ صحيحٍ، فَبَيتُ الْمَقْدِسِ هو الْمَعروفُ في فلسـطينَ، أمَّا الْمَسـجدُ الأقصَـى فَهُوَ الذي أُسرِيَ بسَيِّدنا النَّبيِّ محمَّد (ص) إليهِ من الْمَسـجِدِ الحرَامِ في قوله تعالى: (سـُبْحَانَ الَّذِي أَسـْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسـْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد